والمستغفرين بالأسحار، شهد الله أنه لا إله إلاّ هو، وقال كفى بالله شهيدا بيني وبينكم، ومن عنده علم الكتاب. فهذا وصف يزيد علي كل وصف، ويستغرق نعت الواصفين، ويجمع هذه المقامات السبعة من المراقبة والمشاهدة حالات عن مقامين، مدار المقامات كلها عليهما، ومستخرج المزيد من الكرامات منهما، فأحدهما الخوف عن مقام العلم، والحال الثانى الرجاء عن مقام العمل، فمن كان مقامه العلم بالله كان حاله الخوف منه، ومن كان مقامه الرجاء لله تعالى كانت حاله المعاملة له. ألَم تسمع إلى قوله تعالي إنما يخشى الله من عباده العلماء، وقوله فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا.

الفصل الثلاثون

فيه كتاب ذكر تفصيل الخواطر لأهل القلوب وصفة القلب وتمثيله بالأنوار والجواهر

قال الله سبحانه تعالى ونفسٍ وما سواها فألهمها فجورها وتقواها، أى ألقى فيها وقذف فيها. وقال عز وجل ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه. وقال فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله. وقال تعالى من شر الوسواس الخنّاس الآية. وقال إن الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدوّا إنما يدعو حزبه. وقال تعالى استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله. وقال عز وجل الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء. وقال سبحانه مخبراً عن العدوّ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم إلى آخر الآية. وروينا عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الشيطان قعد لابن آدم بأطْرُقِه: فقعد له بطريق الإسلام، فقال أتسلم وتَذَر دينك ودين آبائك، فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهِجْرة فقال أتهاجُر فتَذَر أرضك وسماءك، فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال أتجاهد وهو جُهد النفس والمال، فتقاتل فتُقتل، فتُنْكَح نساؤك ويُقَسّم مالُك، فعصاه فجاهد. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من فعل ذلك فمات كان حقا على الله تعالى أن يُدخله الجنة. وقد أخبر الله تعالى عنه أنه قال ولأضلنّهم ولأمنينّهم ولآمرنّهم إلى آخر الآية. وروينا أن عثمان بن أبى العاص قال يا رسول الله، حالَ الشيطانُ بيني وبين صلاتى وقراءتى، فقال ذلك الشيطانُ يقال له خِنزب، إذا أحسسته فتعوّذ بالله منه، واتفُل عن يسارك ثلاثا. قال ففعلت ذلك فأذْهَبَه الله تعالى عنى.

وفى الخبر أن للوضوء شيطانا يقال له الوَلْهان فاستعينوا بالله منه. وقد روينا أن الشيطان

يجرى من ابن آدم مجرى الدم. والحديث المشهور ما منكم من أحد إلاّ وله شيطان. قالوا وأنت يا رسول اللّه ؟ قال وأنا، إلاّ أنّ اللّه تعالى أعاننى عليه فأسلم. وقال ابن مسعود رضى اللّه عنه وقد روينا من طريق مسند: فى القلب لُمّتان، لُمّة من المَلَك، إيعادٌ بالخير وتصديقٌ بالحق، ولمة من العدوّ إيعادٌ بالشر، وتكذيبٌ بالحق، ونهىٌ عن الخير. وروينا عن الحسن رحمه اللّه أنه قال إنما هما هَمّان يجولان فى القلب، هَمٌّ من اللّه تعالى، وهَمٌّ من عدوّه، فرحم اللّه عبدا وقف عند هَمِّه، فما كان للّه أمضاه، وما كان من عدوّه يجاهده. وقال مجاهد فى قوله تعالى من شر الوسواس الخناس، قال هو منبسط على قلب الإنسان فإذا ذَكَر اللّه تعالى خَنَس وانقبض، وإذا غَفَلَ انبسط على قلبه. وقال عِكْرِمة الوسواس محلُّه فى الرجل فى فؤاده وعينيْه، ومحله فى المرأة فى عينيهْا إذا أقبلت، وفى عجيزتها إذا أدبرت. وقال جرير بن عَبْدَة العدوى شكوْت إلى العلاء بن زياد ما أجد فى صدرى من الوسوسة، فقال إنما مثل ذلك مثَل النَقْب الذى تمر به اللصوص، فإن كان فيه شىء عالجوه وإلاّ مضوْا وتركوه. وقد رَوَى أبو صالح عن أبى هريرة عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال إن العبد إذا أخطأ خطيئة نَكَتَ فى قلبه نُكْتَةً، فإن هو نَزَعَ واستغفر وتاب صَقَل، وإنْ عاد زيد فيها حتى تعلو قلبَه، فهو الران الذى ذكره اللّه تعالى، كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون .

وروينا عن جعفر بن برقان قال سمعت ميمون بن مهران يقول إن العبد إذا أذنب ذنباً نَكَتَ فى قلبه بذلك نُكْتَةً سوداء، فإن تاب مُحِيَت من قلبه، فترى قلبَ المؤمن مَجْلُواً مثل المرآة، ما يأتيه الشيطان من ناحية إلاّ أبصره. وأما الذى يتتابع فى الذنوب كلما أذنب نكت فى قلبه نكته سوداء، فلا يزال ينكت فى قلبه حتى يسوّد قلبه فلا يبصر الشيطان من حيث يأتيه. وقد أخبر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن قلب المؤمن أجرد فيه سراجٌ يزهر فى تقسيمه القلوب. وروينا عن أبى سعيد الخُدرى وأبى كبشة الأنمارى وبعضه أيضا عن حُذَيْفة عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال: القلوب أربعة، قلب فيه سراج يُزهر فذلك قلب المؤمن، وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر، وقلب أغلف مربوطٌ على غلافه فذلك قلب المنافق، وقلبٌ مصفح فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه مثل البَقْلة يَمدُها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القُرحة يمدُها القَيْح والصديد، فأى المدتين غلبت عليه حُكِمَ له بها، وفى لفظ بعضهم غلبت عليه ذهبت به. وقال اللّه تعالى ومن أحسن من اللّه قيلا، إنّ الذين اتقوا إذا مسّهم طيفٌ من الشيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون، فأخبر أن جلاء القلوب الذِكر، به يُبَصّر القلب، وأنّ باب الذكر التقوى، به يُذكّر العبد، فالتقوى باب الآخرة، كما أن الهوى باب الدنيا، وأمر اللّه تعالى بالذكر وأخبر أنه مفتاح التقوى

لأنه سبب الاتقاء، وهو الاجتناب والورع، فقال تعالي واذكروا ما فيه لعلكم تتقون، وأخبر أنه أظهر البيان للتقوى في قوله كذلك يُبين اللّه آياته للناس لعلهم يتقون. وقال تعالى يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم، الذى خلقك فسوّاك فعدلك. وقال تعالي لقد خلّقنا الإنسان فى أحسن تقويم. وقال ومِنْ كل شيء خلقنا زوجيْن لعلكم تذكّرون. فمن السواء والتعديل والازدواج والتقويم أدوات الظاهر وأعراض الباطن، وهى حواس الجسم والقلب، فأدوات الجسم هى الصفات الظاهرة، وأعراض القلب هى المعانى الباطنة، قد عدّلها اللّه تعالى بحكمته، وسوّاها على مشيئته، وقوّمها اتقانا بصنعته وإحكاما بصُنعه، أولها النفس والروح وهما مكانان للقاء العدوّ والمَلَك، وهما شخصان مُلقيان للفجور والتقوى، ومنها غرضان متمكنان في مكانين وهما العقل والهوى، عن حكمين فى مشيئة حاكم وهما التوفيق والإغواء، ومنها نوران ساطعان في القلب عن تخصيص من رحمة راحم، وهما العلم والإيمان، فهذه أدوات القلب وحواسه ومعانيه الغائبة وآلاته، والقلب فى وسط هذه الأدوات كالملك، وهذه جنوده تؤدى إليه، أو كالمرآة المجلوّة، وهذه الآلة حوله، تظهر فيراها، ويقدح فيه فيجدها، فتفصيل ذلك على الإيجاز أن جُمَل الخواطر ستة هى حدود القلب وقوائمه، مِنْ ورائها خزائن الغيب وملكوت القُدرة، وهى جنود اللّه تعالى، عتيدة وسلطان منه مبين، والقلب خِزانة من خزائن الملكوت، قد أودعه مقلّبه من لطائف الرَغَبوت والرَهَبوت، وشعشع فيه من أنوار العظمة والجبروت ما شاء، لأهل الرفيق الأعلي ونوى الملكوت الأدنى، فأوّل التفصيل خاطر النفس وخاطر العدوّ، وهذان لا يعدمهما عموم المؤمنين، وهما مذمومان محكوم لهما بالسوء، لا يُرَدّان إلاّ بالهوى وضد العلم. وخاطر الروح وخاطر المَلَك، وهذان لا يعدمهما خصوص المؤمنين، وهما محمودان لا يردان إلاّ بحق، ويمادّ عليه العلم. وخاطر العقل، وهو متوسط بين هذه الأربعة، يصلح للمذمومين فيكون حجة على العبد لمكان تمييز العقل وتقسيم المعقول، لأن العبد يدخل في هواه بشهوة جُعلت له، واختيار لا يَعسُر عليه من حيث لا يعقل ولا إجبار، ويصلح أيضا للمحمودين، فيكون شاهداً للمَلَك ومؤيداً لخاطر الروح، ويثاب العبد فى حسن النية وصدق المقصد، وإنما كان خاطر العقل تارة مع النفس والعدوّ، وتارة مع الروح والمَلَك، حكمةً من اللّه تعالى لصنعته، وإتقاناً لصُنعه، ليدخل العبد في الخير والشر بوجود معقول وصحة شهود وتمييز، فيكون عاقبة ذلك من الجزاء والعقاب عائداً له وعليه، إذ قد جعل سبحانه هذا الجسم مكانا لجريان أحكامه، ومحلا لنفاذ مشيئته فى مبانى حكمته. كذلك جعل العقل مَطِيّة للخير والشر، يجرى معهما في خزانة الجسم، إذ كان مكانا للتكليف، وموضعا للتصريف، وسببا للتعريف، العائد من معانى ذلك على صورة

العبد من لذة النعيم أو عذاب أليم، فلم يكن العقل غائبا فيكون العبد عن العقل ذاهبا، ولم تكن الشهوة عازبة فتكون النفس مفقودة، إذ فى ذلك تضعيف لحُجة الله تعالى عليه، وَوَهَنٌ لبرهانه، لأن العقل شاهد الحجة، والشهوة فى النفس مكان البلوى، والنية فى القلب طريق الحُجة، وذلك أصل سبب عود جزاء الأمر والنهى، فالعقل مطبوع على التمييز مجبول على التحسين والتقبيح، والنفس مجبولة على الشهوة مطبوعة على الأمر بالهوى، وهذا نصيبهما من عطائه، وهُداه لهما إلى رشاده وإغوائه، وحظهما من الكتاب وقسمهما من ولى الأسباب، كما قال تعالى فى أحكام مانكرناه تكملةً لما أخبرنا عمّا سبق فى علمه، أعطى كل شئ خَلْقَه ثم هدى، وقال تعالى أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب، وقال تعالى كُتِبَ عليه أنه من تولاّه فإنه يُضِلُّه ويهديه إلى عذاب السعير.

والخاطر السادس هو خاطر اليقين، وهو روح الإيمان ومزيد العلم ، يردّان إليه ويصدران عنه. وهذا الخاطر مخصوص بخصوص لا يجده إلا الموقنون، وهم الشهداء والصدّيقون، لا يرد إلا بحق وإن خَفِيَ ورُوده ودقّ ، ولا يُقدَح إلاّ بعلم اختيار لمراد مختار، وإنْ لطُفت أدلته وبَطُنَ وجه الاستدلال به، ولكن ليس يخفى هذا الخاطر على مقصودٍ به ومرادٍ له، وهم الذين وصفهم الله تعالى بالذكرى، وَرَدّ الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم الفُتْياَ، فقال سبحانه إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب، أى من تولى الله حِفظ قلبه. وقال رسول الله صلىّ الله عليه وسلم ماحاك فى صدرك فَدَعْهُ، والإثمُ حوّاز القلوب، يعنى مايؤثر فيها فَيحِزُّها لرقتها وصفائها ولينها ولطفها. وقال للرجل الذى سأله عن البر والإثم، وهما أصلا أعمال الخير والشر استفِت قلبك وإن أفتاك المفتُون، أى أنّ المتقين يعلمون معانى التأويل والرُخصة عن علمهم العلانية. وأنت على علم فوقهم مطالبٌ بالتحقيق والعزيمة عن علمك السر. وأهل الظاهر أيضا يعلمون حكم الله تعالى الظاهر عن علم اللسان الظاهر الذى هو حجة على أهل العلم الظاهر. وقلبك فقيه منوّر بالإيمان، تنظر به أو ينطق به حكم الله تعالى الباطن عن علم القلب الباطن الذى هو حقيقة الإيمان ، ومنفعته لأهل العلم الباطن. ولا يصلح أنْ يَرّد رسولُ الله صلى الله عليه وسلم سائلا إلاّ إلى فقيه، فلولا أنّ علم القلب هو حقيقة الفقه ماردّ صاحبه مِنْ فُتيا أهل الظاهر إليه، ولا حكَم على المُفتين به، فقد صار علم القلب هو علم العلم، إذ جعله الرسول صلى الله عليه وسلم قاضياً على المفتين بالحكم، وصار عالمُ الباطن هو عالم العلماء إذ لم يسعه تقليد العلماء.

وفى الحديث الآخر البرُّ ما اطمأن إليه القلب وسكَنت إليه النفس وإنْ أفتوك وأفتوك، فهذا وصفُ قلبٍ مكاشَفٍ بالذكر، ونعتُ نفسٍ ساكنةٍ بمزيد السكينة. والبر كما وصف من قلوب المؤمنين فى صريح الكلام وفى دليل الخطاب. فأمّا صريحه فقوله تعالى الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر اللّه، ألاَ بذكر اللّه تطمئن القلوب. وقوله تعالى هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم. وأما دليل الكلام الذى يشهد بالتَدبُّر فقوله تعالى فى وصف قلوب أعدائه المحجوبين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا، ومثله أعِنْدَه علمُ الغيب فهو يرى، ففى تدبر معناه أن أولياءه المستجيبين له، سامعون منه، مُكاشَفُون بذكره، ناظرون إلى غيبه. وقال تعالى فى مِثْله مَثَلُ الفريقين كالأعمى والأصم، هذا فريق المتبّعين للسُبل المتفرقة عن سواء السبيل، الضالين عن سواء الصراط، والبصير والسميع هو فريق المهتدين المتبّعين للصراط المستقيم. وقال تعالى ماكانوا يستطيعون السمع وماكانوا يبصرون، أو ألقى السمع وهو شهيد، إنّ كان اللّه يريد أنْ يغويكم هو ربكم، وقال صلى اللّه عليه وسلم فى مُجمل صفة القلب التقوى هـهنا، وأشار إلى القلب. وقال اللّه سبحانه وتعالى فى ذكر القلوب المقفلة بالذنوب، لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون، وقال تعالى فى فض طابعها بالتقوى، واتقوا اللّه واسمعوا، واتقوا اللّه ويعلمكم اللّه. وفى الخبر إذا أراد اللّه بعبد خيرا جعل اللّه له زاجرا من نفسه وواعظا من قلبه. وفى الخبر الآخر من كان له من قلبه واعظ كان عليه من اللّه حافظ. وروينافى تفسير قوله تعالى ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان، قال سمعناه من قلوبنا ، وقال فى ضده لأعدائه أولئك يُنادَوْن من مكان بعيد، أى بعيد عن قلوبهم. وقال اللّه تعالى فى التوبة من ميل القلوب وَهَمُّها إن تتوبا إلى اللّه فقد صَغَت قلوبُكما، وبمعناه وُهِموا بما لم ينالوا فإن يتوبوا يكُ خيرا لهم. وقال فى تحقيق العَمَى للقلب فإنها لا تُعمى الأبصار ولكن تُعمى القلوب التى فى الصدور، فأهل القلوب يتعظون بلا واعظ من خَلْق، ويزدجرون بلا زاجر فى ظاهر.

وسائر ماذكرناه من الخواطر لا تعدمه المؤمنون. والقلب خزانة اللّه تعالى من خزائن الغيب. وهذه المعانى جنود اللّه تعالى مقيمة حول القلب، يُخفى منها مايشاء، ويُظهِر ويُبدِئ منها مايريد، ويُعيد ويُبسط القلب ما يشاء منها، ويقبضه فيما شاء عنها. وكل قلب اجتمع فيه ثلاثة معان لم تفارقه خواطر اليقين، ولكن يضعف الخاطر ويخفى لضعف المعانى ودقتها، ويقوى اليقين ويظهر بقوتها، لأن هذه الثلاثة مكان اليقين، أحدها الإيمان وموضعه من اليقين مكان حجر

النار، والثانى العلم ومكانه موضع الزناد، والثالث العقل وهو مكان الحرّاق، فإذا اجتمعت هذه الأسباب قَدَحَ خاطر اليقين فى القلب. ومثلُ القلب فى قوته بقوة مَدَده، وفى صفائه بجودة عدده، مثلُ المصباح فى القنديل إلى مكان العقل منه، والزيت موضع العلم به، وهو روح المصباح، وبمَدَده يكون ظهور اليقين، والفتيلة مكان الإيمان منه، وهى أصله وقوامه الذى يظهر بها، فعلى قدر قوة الفتيلة وجودة جوهرها يقوى اليقين، وهو مثلُ الإيمان فى قوته بالورع، وكماله بالخوف، وعلى مقدار صفاء الزيت ورقته واتساعه تضئ النار التى هو اليقين، وهو مثُل العلم فى مَدَد الزهد وفَقد الهوى، فصار العلم مكانا للتوحيد فتمكّن الموحّد فى التوحيد على قدر المكان. وقد قال اللّه تعالى فاعلم أنه لا إله إلا اللّه . وقال تعالى فاعلموا أن ما أُنزل بعلم اللّه، وأنْ لا إله إلاّ هُو ، فقدّم العلم على التوحيد فصار أوّله، فكلما اتسع القلب بالعلم باللّه وزَهَد فى الدنيا ازداد إيمانا وعلا، لأنه يرى فى علّوه مالا يراه غيره، ويعلم فى اتساعه ما لا يعلمه سواه، فيكبُر المؤمن به فيكون ذلك مزيد إيمانه وقوته، ثم يشهد كل ما آمن به فيكون بذلك قوة نفسه وسعة مشاهدته. وكلما قصرّ علم القلب باللّه تعالى وبمعانى صفاته وأحكام ملكوته، قلّ إيمان هذا العبد، ثم أُشْهِدَ ما آمن به من وراء حجاب لِما غلب عليه من حب الأسباب، وَسمعَ الكلام من خَلْف سُتُرٍ لعجزه عن المسارعة إلى البر، فيضعف بذلك إيمانه، ويتخيل مشاهدته ولا يتحقق، فليس من علمٍ من صفات اللّه سبحانه وتعالى وقدرة آياته مائة ألف معنى، ثم شهدها كلها عن قرب عن كشف مثُل مَنْ علم منها عشرة معان، ثم شهدها من بعد عن حجاب. وهما مؤمنان معا، لكن يبين إيمانهما فى القرب والعلو والزيادة والنقصان كما بين العشرة إلى مائة ألف، فيكون إيمان قلب المسلم معشار معشار عشر إيمان قلب المُوقن، والمعشار هو عشر العشر، جزء من مائة جزء. ويكون إيمان قلب المؤمن فيما بين ذلك من الزيادة على العشر والنقصان من مائة ألف على قدر قَسمِه. ومثُل ذلك فيما نعقله مثُل رجل قال لك إن عندى فلانا فقد حصل لك علم أنه عنده، غير أن هذا العلم غير يقين لأنه يجوز أن يكون قد اشتبه عليه، أو يكون قد كان عنده ثم خرج وليس هو الآن عندة. وهذا مثُل إيمان المسلم هو على علم خبر لاخبر. ثم إنك تأتى إلىّ فتسمع كلامه من وراء حجاب، فقد علمت الآن أنه عندى، لأنك سمعت كلامه واستدللت به على كونه، إلاّ أن هذا العلم أيضا غير تحقيق، لأن الأصوات تشتبه والأجرام تتقارب. ولو قلت لك بعد ذلك لم يكن عندى، وإنما كان ذلك غيره أشبه صوته، تشككتَ فيه لاحتمال ذلك، ولم يكن عندك يقين عين تدفع به قولى، ولا شهادة نظر تُنكر بها علىّ. وهذا مَثَلُ لإيمان عموم المؤمنين، فهو

إيمان خبر لِعَمْرِي، وفيه يقين استدلال ممتزج بظن، إلاّ أنه غير مشاهدة العارفين، لأنه قد يدخل عليهم التخييل والتشبيه فلاَ يدفعونه بشهادة يقين. ثم إنك تدخل إليّ الآن بعد أن قيل لك هو عندى، أو بعد أن سمعت كلامه فتشهده جالسا لا حجاب بينك وبينه، فهذا هو يقين المعرفة، وهذه شهادة الموقن، وعندها انتفى كل شك وتحقق خبر العلم، وهذا مَثَلٌ لعلم إيمان الموقنين، الذى قد اندرج فيه إيمان عموم المؤمنين، من علم الخبر المحتمل ومن سماع الكلام المشتبه من وراء حجاب. واسم الإيمان واقع على جميعهم، ولكن الأوّل عَلِمَ أنه عندى بما قيل له فصدّق، والثانى عَلِمَ بما سَمِع فاستدلّ ولم يشهد فيقطع، والثالث هو الذى عاين فقطع وقد شهد له الرسول صلى اللّه عليه وسلم بالمزيد، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ليس الخبر كالمعاينة، وقال وليس المخبر كالمعاين. ومِثْل هذا أيضا أن تَرىَ الشئ بالنهار فتعرفه معرفة عَيْن، وتعرف مكانه بنظر لا تخطئه، ثم إنك تحتاج إليه ليلا فلست تعرف مكانه رأىَ عين، وإنما تقصده بمعرفة استدلال عليه وبحُسن ظن أنه موجود على حاله، أو يعرف بشئ معهود أنه لا يتحول. وكذلك الأدلة هى الغائبات وسقوطُها مع المشاهدَات ، وبمعناها رؤية الشئ بنور القمر فإنه يشبح ويلوح المشكلات، ورؤيته فى ضياء الشمس فإنها تكشف الأمر على ماهو به، فهذا مَثَل نور اليقين إلى نور الإيمان. ومَثَلٌ رابع فى تفاوت المؤمنين فى حقيقة الكمال ودخولهم فى الاسم والمعنى، مثل صلاة رباعية أقيمت فجاء رجل فأدرك تكبيرة الإحرام، ثم جاء آخر فأدرك الركوع، ثم جاء آخر فأدرك الركعة الثانية، ثم جاء ثالث فأدرك الركعة الثالثة، ثم جاء رجل رابع فأدرك الركعة الآخرة، فكلهم قد صلّوا وأدركوا الصلاة فى جماعة ونال فضلها، لقوله صلى اللّه عليه وسلم من أدرك من الصلاة ركعة فقد أدرك الصلاة. ولكن ليس من أدرك الركعة الأولى فى كمال الصلاة وإدراك حقيقتها كمن أدرك الثالثة والرابعة، ولا يكون أيضا من أدرك التكبيرة للإحرام فى الفضل كمن لم يدرك شيئاً من القيام وهما مدركان معا ، فكذلك المؤمنون فى كمال الإيمان وحقائقه لا يستوون وإن استووا فى الاسم والمعنى. وكذلك فى تفاوتهم فى الآخرة فقد جاء فى الخبر أنه يقال أخرجوا مَنْ فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ، ونصف مثقال، وربع مثقال، وشعيرة ، وذرة من إيمان ، فقد حصلوا متفاوتين فى الإيمان مابين الذرة إلى المثقال، وكلهم قد دخل النار إلا أنهم على مقامات فيها، وفيه دليل أن مَنْ كان فى قلبه وزن دينار من إيمان لم يمنعه ذلك من دخول النار لعظم ما اقترف من الأوزار ، وأنّ من كان فى قلبه وزن ذرة من إيمان لم يحق عليه الخلود فى دار الهوان لتعلقه بيسير الإيقان، وأنّ من زاد إيمانه على وزن دينار لم

يكن النار عليه سلطان فكان من الأبرار، وأنّ من نقص إيمانه عن ذرة لم يخرج من النار وإنْ كانت سيماه واسمه فى الظاهر فى المؤمنين، لأنه فى علم الله من المنافقين الفُجّار، وقد قال الله تعالى فى وصفهم وإنّ الفجار لفى جحيم، ثم قال وماهم عنها بغائبين. ثم صار صاحب المثقال والذرة فى الجنة على تفاوت درجات، وكان الزائد إيمانه على مثقال فى أعلى عليين على هؤلاء، وترفّع أهل الدرجات العلى على أهل عليين ارتفاع الكوكب الذى فى أفق السماء، وكلهم قد اجتمع فى الجنة على تفاوت مقامات وتعالى درجات.

وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس شئٌ خيراً من ألف مثله إلاّ الإنسان، فلعمرى إن قلب الموقن خيرٌ من ألف قلب مسلم، لأن إيمانه فوق مائة إيمان مؤمن، وعلمه بالله تعالى أضعاف علم مائة مسلم. ويقال إن واحداً من الأبدال الثلاثمائة قيمته قيمة ثلاثمائة مؤمن. وكان أبو محمد يقول يعطى الله تعالى بعض المؤمنين من الإيمان بوزن جبل أحد، ويعطى بعضهم مثل ذرة. وقد قال الله تعالى وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين بالعلو، ولانهاية لعلو الإيمان فصار علو كل قلب على قدر إيمانه، ولذلك رُفِعَ العلماء على المؤمنين درجات فى قوله تعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات، ففسرها ابن عباس رضى الله عنه فقال الذين أوتوا العلم فوق المؤمنين بسبعمائة درجة، كل درجتين كما بين السماء والأرض. وفى الخبر أكثر أهلِ الجنة البلّه، وعلّيون لأولى الألباب. وعن النبى صلى الله عليه وسلم فَضْلُ العالم على العابد كفضلِ القمر على سائر الكواكب. وروينا فى لفظ أبلغ من هذا كفضلى على أمتى ، فالموقنون من المؤمنين أعلى إيمانا، والعالمون من الموقنين أرفع مقاما، ثم على قدر بياض الماء يستبين من القنديل حُسنه وصفاؤه، ومثل هذا العقل فى صحته من الاعتلال وصفائه من كَدَر الأحوال والأموال، ويجمع ذلك كله القنديل وهو القلب، فعلى قدر رقة القلب ولُطف جوهره وصفائه من كَدَره وحُسْن طهارته عن الآثار تكون هذه العلوم فيه. والأنوار وجوهر الزجاجة فى الصفاء محتاج إلى صفاء الماء، كما أن صفاء الماء محتاج إلى صفاء الجوهر، وبمعيارهما يكون القلب والعقل. ووقود النور محتاج الى قوّة الفتيلة ومَدَد الزيت، فبموضعها فى القوّة والمَدَد يكون العلم بالله تعالى واليقين، ذلك تقدير العزيز العليم. وكل قلب اجتمع فيه ثلاثة معان لم يفارقه خواطر الهوى: **الجهل والطمع وحب الدنيا** ، ثم يضعف خاطر الهوى ويَقْوَى على قدر تمكُّن هذه الثلاثة من النفس، وحقائقها على مثل مانكرناه من تمكُّن خواطر اليقين وضعفها لوجود مكانها وهو العلم والإيمان والعقل. وفى القلب يظهر سلطان ذلك أجمع، فأى جند كانت المشيئة معه

غلب. وروينا عن عليّ عليه السلام أن لله فى أرضه آنية وهى القلوب، فأحبها إليه أرقّها وأصفاها وأصلبها، ثم فسّره فقال أصلبُها فى الدين وأصفاها فى اليقين وأرقها على الإخوان، فمثّل القلوب مثل الأوانى فى تقارب جوهرها، فأرقّها وأصفاها وأعلاها يصلح للمَلِك والوجه والطيب، وأكثفها وأرداها يصلح للأدناس، ومابين ذلك يصلح لما بينهما. ومثلهما أيضا مثل الموازين، الطيّار اللطيف المعيار يصلح لوزن الذهب بالتحرير، والمعيار الكثيف الجافى يصلح للقّت والأنعام، ومابينهما يصلح لما بين ذلك، فيوزن بكل ميزان مايصلح له من كل شئ موزون، كما يجعل فى كل إناء مايليق به من كل شئ مرزول أو مصون. كذلك الحُكم والحكمة فى الملكوت الباطن، كالحكمة والحُكم فى الملكوت الظاهر بتعديل الظاهر الباطن. وفى تفسير قوله عز وجل مَثَلُ نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح فى زجاجة، فسّره أُبّى بن كعب قال مَثَلُ نور المؤمن، وكذلك كان يقرأه، قال فقلب المؤمن هو المشكاة فيها مصباح، فكلامه نور، وعمله نور، ويتقلب فى نور، ثم قال فى قوله تعالى أو كظلمات فى بحر لُجيّ، قال قلب المنافق فكلامه ظُلمة، وعمله ظُلمة ويتقلب فى ظُلمة. وكان زيد بن أسلم يقول فى قوله تعالى فى لوح محفوظ، قال قلب المؤمن. وقال أبو محمد سهل مَثَل القلب والصدر مَثَل العرش والكرسى.

وروينا فى حديث ابن عمر قال قيل يارسول الله أين الله فى الأرض، قال فى قلوب عباده المؤمنين. وفى الخبر المأثور عن الله تعالى لم يسعنى سمائي ولا أرضى ووسعنى قلب عبدى المؤمن. وفى بعضها اللين الوادع، فاللين يعنى السهل الرقيق القريب، والوادع يعنى الساكن المطمئن. وفى الخبر ما أُلبِس العبد لُبْسةً أحسن من خشوع فى سكينة، فهذه لبسة المتقين وصبغة الله تعالى للعارفين.

وفى الحديث قيل يارسول الله من خير الناس، قال كل مؤمن محموم القلب، ثم فسره رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هو التقى النقى الذى لاغش فيه ولا بَغْى ولا غِل ولا حسد. وقال بعض العارفين فى معنى قوله تعالى إلاّ مَنْ أتى الله بقلب سليم، أى مما سوى الله ليس فيه غير الله. وفى قول أهل التفسير سليم من الشرك والنفاق. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك فى أمتى أخفَى من دبيب النمل، وهذا لا يعدمه المؤمنون إلاّ الصديقين. وقال أكثر منافقى أمتى قرّاؤها. وهذا لا يعدمه العابدون إلا العارفين. ومن خواطر اليقين مايرد بشئ لاتظهر دلائله فى الظاهر لخفائه وغموض شواهده، فليس يُعلم إلا بباطن العلم وغامض الفهم

والغوص على لطائف معانى التبيين. وباطن الاستنباط من فهم التنزيل وتعليم التأويل كما قال الحبيب الخليل رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس اللهّم فقهه فى الدين وعلّمه التأويل. وكما قال علىّ بن أبى طالب ماعندنا شئ أسرّه إلينا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم سوى كتاب الله تعالى ، إلاّ أن يُؤتِى الله تعالى عبداً فهما فى كتابه. وكما جاء فى تفسير قوله تعالى يؤتى الحكمة من يشاء قال الفهم فى كتاب الله. وقال أصدق القائلين ففهمّناها سليمان، فخصّه بفهم منه زاده به فوق الحُكم والعلم الذى شرك فيه أباه فزاده على فتيا أبيه.

وروينا عن علىّ عليه السلام فى الحديث الطويل الذى يقول فيه واليقين على أربع شُعَب، على تبصرة الفطنة، وتأويل الحكمة، وموعظة العبرة، وسُنّة الأوّلين. فمن تَبصّر الفطنة تأوّل الحكمة، ومن تأوّل الحكمة عَرَف العبرة، ومن عرف العبرة كان فى الأولين، إلاّ أن أهل اليقين، المرادين به، العارفين بأحكام الله تعالى الباطنة، يعلمون تفصيل خواطر اليقين ومقتضاها من حيث أشْهِدُوا مطلعها من الغيب، وبحيث عرفوا موجبها من الوصف بنور الله الثاقب وقربه الحاضر وسلطانه النافذ. كما جاء فى الخبر اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى أى باليقين، وفى لفظ آخر اتقوا فراسة العالم فكأنه مفسر له. ومنه قوله تعالى وإنّ فى ذلك لآيات للمتوسمين. وقوله قد بيّنا الآيات لقوم يوقنون أى بنور اليقين. وكان أبو الدرداء يقول المؤمن ينظر إلى الغيب من وراء ستْر رقيق. واللّه إنه للَحْق يقذفه الله تعالى فى قلوبهم ويجريه على ألسنتهم. وقال بعض العلما ظَنُ المؤمن كَهَانة، أى كأنه سحر من نفاذه وصحة وقوعه. وقال بعض العلماء يدُ الله تعالى على أفواه الحكماء لا ينطقون إلاّ بما هيأ الله عز وجل لهم من الحق. وقال آخر لو شئت لقلت إنّ اللّه يُطلع الخاشعين على بعض سره. وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أمراء الأجناد احفظوا ماتسمعون من المتعظين، فإنهم ينجلى لهم أمور صادقة. وقال الله تعالى ومَن أصدق من الله قيلا، يا أيها الذين آمنوا إنْ تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ، قيل نور تفرّقون به بين الشُبهات ، ويقين تفرقون به المشكلات . ومن هذا قوله سبحانه وتعالى ومَن يتق الله يجعل له مخرجا، قيل مخرجا من كل أمر ضاق على الناس، ويرزقه من حيث لا يحتسب، يُعلّمه علما بغير تعليم ويُفطّنه بغير تجربة، أى بالشاهد الصحيح والحق الصريح. ومثله قوله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبلنا ، قيل الذين يعملون بما يعلمون، قال يوفقهم ويهديهم إلى ما لا يعلمون حتى يكونوا علماء حكماء. وقال بعض السلف نزلت هذه الآية فى المتعبّدين المنقطعين إلى الله سبحانه وتعالى المستوحشين من الناس، فيسوق الله تعالى إليهم

مَنْ يعلمهم أو يُلهمهم التوفيق والعصمة.

وفى الخبر من عَلِمَ بما يعلم أورثه الله تعالى عِلْم مالم يعلم، ووفّقه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة، ومن لم يعمل بما يعلم تاه فيما يعلم، ولم يوفق فيما يعمل، حتى يستوجب النار. فمعنى أورثه علم مالم يعلم أى من علوم المعارف التى هى مواريث أعمال القلوب، مثل الفرق بين الاختبار والاختيار، والابتلاء والاجتباء، والمثوبة والعقوبة، ومعرفة النقص من المزيد، والقبض والبسط، والحل والعقد، والجمع والتفرقة، إلى غير ذلك من علوم العارفين، بعد حُسن التفقه والأدب عن مشاهدة الرقيب ، والقرب لصحة المواجيد والقلوب .

وقال بعض التابعين من عمل بعُشر مايعلم علّمه الله تعالى مايجهل. وقد قال حذيفة أنتم اليوم فى زمانٍ مَنْ ترك عُشْرمايعلم هَلَك، وسيأتى بعدكم زمانٌ مَنْ عَمِلَ بعُشْر مايعلم نجا. وقال بعضهم كلما ازداد العبد عبادة واجتهاداً ازداد القلب قوّة ونشاطا، وكلما ملّ العبد وَفَتَر ازداد القلب ضعفاً ووَهناً. وليس يكاد علم اليقين يقدح فى معدن العقل لأن علوم العقل مخلوقات، ولا يكاد ينتجه الفكر، ولا يخرجه التدبر، فما أنتجته الأفكار واستخرجته الفطرة من الخواطر والعلوم، فتلك علوم العقل، وهى كشوف المؤمنين ومحمودات لأهل الدين.

فأما خاطر اليقين فإنه يظهر من عين اليقين، يُنادَى به العبد مناداةً، ويبغتُه مفاجأة، لأنه مخصوص به مراد، مقصود به محبوب، متولى به مطلوب، لا يجده إلا عارف أو خائف أو محب، ومَنْ سِوَىَ هؤلاء فبحاله محجوب، وبعاداته مطلوب، وإلى مقامه ناظر، وفى طريقه بمعقوله سائر،

فأمّا العارفون، المواجَهون بعين اليقين، المكاشفون بعلم الصدّيقين فإنهم مسيَّرون، محمولون سابقون مستهترون، قد وَضَعَتْ الأذكارُ عنهم الأوزار، كما جاء فى الخبر سيروا سبْقَ المفرَدون بالفتح، والمفرِدون أيضا بالكسر، فهم مفردون لله تعالى بما أفردهم الله تعالى، قيل ومَنْ المفردون قال المستهترون بذِكْر الله، وضع الذكر أوزارهم فوردوا القيامة خفافا، فلما أفردهم الله تعالى ممن سواهم له أفردوه عما سواه به، فَذَكَرهم، فاستولى عليهم ذكرُه، فاصطلم قلوبَهم نورُه تعالى، فاندرج ذِكْرُهم فى ذِكْره، فكان هو الذاكر لهم، وكانوا هم المكان لمجارى قدرته عز وجل، فلا يوزن مقدار هذا الذكر ولا يُكتب كيفية هذا البرّ، فلو وُضعت السموات والأرض فى كفة لرجح ذكرُه تعالى لهم بهما، وهم الذين قال لهم فتَرَى مَنْ واجهتُه بوجهى، لعلم أحد أى شئ

أريد أن أعطيه، لو كانت السموات والأرض فى موازينهم لاستقللتها لهم، أوّل ما أعطيهم أن أقذف من نورى فى قلوبهم، فيخبرونى عنى كما أخبر عنهم. وهذا هو ظاهر أوصافهم وأول عطاياهم، فطلب هؤلاء لا يُعرف، ونصيبهم لا يُكيّف، ومطلوبهم كُنْهُ قَدْره لا يوصف، عطاؤهم غير مخلوق، ومشاهدتهم وصف التحقيق بعين اليقين إلى حق اليقين، فأول نصيبهم من مطلوبهم علم اليقين، وهو صفاء المعرفة بالله تعالى، وآخر علم الإيمان أول عين اليقين، وهو مشاهدة وصفٍ معروف، وهذه وجهة التوحيد، ولا آخر لأول علم اليقين، ولا انقطاع لآخر نصيبهم من مشاهدتهم، فظاهر التوحيد توحيد الله تعالى فى كل شئ، ومشاهدة إيجاده قبل كل شئ، ولا نهاية لعلم التوحيد، ولا غاية لمزيد عطاء الموّحدين، ولكن لهم نهايات يوقفون تحتها، وغايات يصدرون عنها تجعل أماكن لمزيدهم، ويزدادون فى وسعها، ويُمَدُّون بعلوم يطلبون بها ما يُكاشَفون به لِما وراءها، أبداً بديلاً آخر ولا أمد، ولا يصل العبد إلى مشاهدة علم التوحيد إلا بعلم المعرفة، وهو نور اليقين، ولا يُعطى نور اليقين حتى تُمَحَّض الجوارح بالأعمال الصالحات كما يُمَحَّض الزِقّ باللبن، حتى تظهر الزبدة وهى علم اليقين. وليست هذه الزبدة غاية الطالبين ولا بُغية الصدّيقين لأن وراءها صَفْوَها وخالصَها، ثم تذاب هذه الزبدة حتى يخلُص سمنها وهو صفْوها ونهايتها. وهذا مَثَل لعين اليقين بعد علمه، وبعد مشاهدة الوجه بمرآة القُرب، وهى نوره، فحينئذ لا يفارقه وَجْدُه وحضُوره، فيُرفع العبد من خواطر اليقين إلى مشاهدة الصفات، بعد نوب علم الخواطر يتجوهر نور شعاع وجه الذات، وهذا مقام الإحسان وإنّ اللّه لَمَع المحسنين بعد مجاهدتهم النفوس فيه، وبيعها مع الأموال منه، فأحسَن إليهم باشترائها منهم، وكان معهم كما قال سيجزيهم وصْفَهم، فإنما كانوا محسنين لأن المحسن معهم، كما كانوا أعلين إذ الأعلى معهم، فقد قال وأنتم الأعلَون واللّه معكم. وسئل رسول اللّهْ صلى الله عليه وسلم عن الإحسان فقال أن تعبد الله كأنك تراه. وينتقل العبد من أعمال الجوارح وهى المجاهدة التى طُرِح عليه ثقلُها فحملها، فتُحمل فيما حمل، وتُحفظ له ما استحفظ إلى علم اليقين، وهو الروح والرضا وهذا هو هداية السبيل.

وأول هذا كله أن يدخل العبد بعد التوبة النصوحة فى أحوال المريدين وأعمال المجاهدين للنفس والعدوّ، ثم ينتقل إلى خواطر اليقين فهذا ميراث المجاهدين، كما قال والذين جاهدوا فينا، يعنى نفوسهم وأموالهم وجاهدوا عدوّهم إذ يعدهم الفقر ويأمرهم بالفحشاء فصابَرَهم فغلبوه، فباعوا النفوس والأموال، فأُعتِقوا من رِق الهوى، ونَجوا من أهوال الحساب لنهدينهم

سبلَنا ، أى لنطرقنهم إلى مكاشفات العلوم، ولنسمعنهم غرائب الفهوم، ولنوصلنهم إلى أقرب الطرق إلينا بُحسن مجاهدتهم فينا. ثم ختم الأمر بقوله تعالى وإن اللّه لمع المحسنين. هذا مقام مشاهدة الصفات، فكان المجاهد فيه معهم أولاً بالتوفيق، فبه صبروا له بالتأييد. وكان المحسن معهم آخر اليوم فيه أحسنوا إلى نفوسهم غدا.

وروينا عن الحسن البصرى عن رسول اللّه صلى اللّهه عليه وسلم العلم علمان، فعلم باطن فى القلب فذاك هو النافع. وسئل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن معنى قوله تعالى فمن يرد اللّه أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ماهذا الشرح، قال هو التوسعة، يعنى أن النور إذا قُذف فى القلب اتسع له الصدر وانشرح. وقال بعض العارفين: لى قلب إذا عصيتُه عصيت اللّه تعالى، يعنى أنه لا يُقذَف فيه إلاّ طاعة ولا يقرّ فيه إلاّ حق، فقد صار رسوله إليه ، فإذا عصاه فقد عصا المرسِل، بمعنى الخَبَر الإيمان ماوقر فى القلب وصدقه العمل، وبقوله صلى اللّه عليه وسلم المؤمن ينظر بنور اللّه، فمن نظر بنور اللّه كان على بصيرة من اللّه تعالى وكان عمله بنوره طاعة للّه تعالى.

وقال بعض العارفين منذ عشرين سنة ماسكن قلبى إلى نفسى ساعة ، وماساكنته طرفة عين. وسئل بعض العلماء عن علم الباطن أى شئ هو، فقال سرّ من سرّ اللّه تعالى يقذفه فى قلوب أحبابه، لم يُطلِعْ عليه ملَكًا ولا بشرا. وقد روينا فيه خبرا مسندا أحببنا أن نسنده، وقد جاء رجل إلى النبى صلى اللّه عليه وسلم فقال علّمنى من غرائب العلم، فقال هل عرفت الرب، فأخبر أن غرائب العلوم فى المعرفة .

وقد أمر صلى اللّه عليه وسلم بأصل العلوم الذى فيه غرائب الفهوم، فقال اقرؤا القرآن والتمسوا غرائبه، يعنى تدبُر معانيه واستنباط بواطنه، إذ بكلامه عَرَفَه أولياؤه.

وقد قيل تكلموا تُعْرَفوا ، فمن عرف معانى الكلام ووجوه الخطاب عَرَف به معانى الصفات وغرائب علوم أسماء الذات. وقال ابن مسعود من أراد علم الأوّلين والآخرين فليثوّر القرآن . وقال بعض أهل المعرفة فى فهم هذه الآية إن اللّه يأمر بالعدل والإحسان، قال العدل تدبُر القرآن وفهمُه، والإحسان مشاهدة الفهم. وفى تأويل قوله عليه الصلاة والسلام فى صفة العدل شاهدٌ لقوله هذا فى حديثه الذى وصف فيه شُعَب الإيمان، فقال الإيمان على أربع دعائم: على الصبر، واليقين، والعدل، والجهاد. ثم قال والعدل على أربع شُعَب: غائص الفهم، وزهرة العلم،

وروضة الحلم، وشرائع الحُكم، فمن فَهِمَ فسرّ جُمَل العلم، وَمَنْ عَلِمَ عَرَفَ شرائع الحُكم، ومَنْ حَلُم لم يُفَرِّط فى أمره وعاش فى الناس حميدا.

وقال بعض المكاشفين ظهر لى المَلَكَ فسألنى أنْ أملى عليه شيئا من نكرى الخفى من مشاهدتى من التوحيد. وقال مانكتبُ لك عملا ونحن نحب أن نصعد لك بعمل نتقرب به إلى الله تعالى، فقلت أليس يكتبان الفرائض، قال بلى، قلت فيكفيهما ذلك. وقال بعض العارفين، قال سألت بعض الأبدال عن مسئلة من مشاهدة اليقين فالتفت إلى شماله وقال ماتقول رَحِمَك الله، ثم التفت إلى يمينه فقال ماتقول رحمك الله، ثم أطرق إلى صدره وقال ماتقول رحمَك الله، ثم أجابنى بأغرب جواب ماسمعته قط وأعلاه، فقلت رأيتك التفتّ عن شمالك ويمينك ثم أقبلت على صدرك فلماذا، فقال سألتنى عن مسئلة لم يكن عندى فيها عِلمٌ عتيد، فالتفتُ إلي صاحب الشمال فسألته عنها، وظننت أن عنده منها علماً فقال لا أدرى، فسألت صاحب اليمين وهو أعلم منه فقال لا أدرى، فنظرت إلى قلبي فسألته فحدثنى بما أجبتُك وإذا هو أعلم منهما. وقد كان أبو يزيد وغيره يقولون ليس العالِم الذى يحفظ من كتاب الله، فإذا نسى ما حفظ صار جاهلا، إنما العالم الذى يأخذ علمه من ربه عز وجل ، أىّ وقت شاء بلا تحفظ ولادرس، فهذا لعُمرى لا يَنْسَى عِلمَه ، وهو ذاكرٌ أبداً لايحتاج إلى كتاب، وهو العالم الربّانى. وهذا هو وصف قلوب الأبدال من الموقنين، ليسوا واقفين مع حفظ، إنما هم قائمون بحافظ. وقد روينا فى الخبر أن من أمتى محدّثين ومكلمين، وإن عمر منهم. وقرأ ابن عباس وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى ولا محدّث يعنى الصدّيقين . وهذا كان طريق السلف من الصحابة وخيار التابعين، إذا سئلوا وفّقوا وألهموا الصواب لقُربهم من حُسن التوفيق، وسلوكهم حقيقة محَجّة الطريق، فخاطر اليقين إذا ورد على قلب مؤمن اضطرته مشاهدته إلى القيام به وإن خَفِىَ على غيره، وَحَكَم عليه بيانه وبرهانه بصحة دليله وإنْ التَبَسَ عَلَى مَنْ سواه، وقد قال الله تعالى فى تخصيص الموقنين قد بينا الآيات لقوم يوقنون، هذا بصائر للناس وهدي ورحمة لقوم يوقنون. وقال فى نعت المتّقين وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقّون. وقال تعالى هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتّقين. وقال فى فضل العلماء بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم. وقال قد فصّلنا الآيات لقوم يعلمون. فحقيقة العلم إنما هو من التقوى واليقين، وهذا هو علم المعرفة المخصوص به المقرّبون، وَهَبَ لهم الآيات وخصّهم بالبيان والدلالات بما استحفظوا من كتاب الله

وكانوا عليه شهداء، فهذه الخواطر تبدو فى القلوب عن هذه الأواسط التى هى خزائن الله تعالى من خزائن الأرض، ولله خزائن السموات والأرض ولكنّ المنافقين لا يفقهون ، والفقه صفة القلب، والعرب تقول فقهت بمعنى فهمت، وابن عباس يفسّر قول الله عز وجل لهم قلوب لا يفقهون بها، يقول لا يفهمون بها، ويجعل الفقه الفهم، فخاطر اليقين والروح والملَك من خزائن الله، وخاطر العقل والنفس والعدوّ من خزائن الأرض، كما قيل النفس تُرابيّة خُلقت من الأرض فهى تميل إلى التراب، والروح روحانى خُلِقَ من الملكوت فهى ترتاح إلي العلق، والقلب خزائن الملكوت مثلُه كالمرآة تقدّح هذه الخواطر عن أوساطها من خزائن الغيب فتوقد فى القلب فيتلألأ فيه للتأثير، فمنها ما يقع فى سمع القلب فيكون فهما، ومنهاما يقع فى بصر القلب فيكون نظرا وهو المشاهدة، ومنها ما يقع فى لسان القلب فيكون كلاما وهو الذوق، ومنهاما يقع فى شم القلب فيكون علما وهو الفكر، وهو العقل المكتسب بتلقيح العقل الغريزى، وهذا أقلها لَبْثاً وأيسرها عناءً . وما وقع فى ناظر القلب وحسه فخرق شفافه ووصل إلى سويدائه وهو المباشرة كان وَجْداً، وهذا هو الحال عن مقام المشاهدة، ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم أسألك إيمانا يباشر قلبى. وقال بعض العارفين إذا كان الإيمان فى ظاهر القلب كان العبد محباً للآخرة والدنيا، وكان مرة مع الله تعالى ومرة مع نفسه. فإذا دخل الإيمان إلى باطن القلب أبغض العبد الدنيا وهجر هواه. وقد قال عالمنا أبو محمد سهل رحمه الله للقلب تجويفان، أحدهما باطن وفيه السمع والبصر وكان يُسمى هذا قلب القلب، والتجويف الآخر ظاهر القلب وفيه العقل، ومثَل العقل فى القلب مثل النظر فى العين هو صِقال لموضع مخصوص فيه بمنزلة الصِقال الذى فى سواد العين، فإذا كانت هذه الخواطر عن أواسط الهداة به وهى المَلَك والروح كانت تَقْوَى وهُدًى ورُشد، أو كانت من خزائن الخير ومفتاح الرحمة قدَحَت فى قلب العبد نوراً وطيبا، أدركه الحفظة وهم أملاك اليمين فأثبتوها حسنات، وإن كانت الخواطر عن أواسط الغُواة وهم العدوّ والنفس، كانت فجوراً وضلالا، وهى من خزائن الشر، ومعالق الأعراض، قَدَحت فى القلب ظُلمة ونَتَنا أدرك ذلك الحفظة من أملاك الشمال فكتبوها سيآت. وكل هذا إلهام وإلقاء من خالق النفس ومُسوّيها وجبار القلوب ومُقلّبها، حكمةً منه وعدلاً لمن شاء، ومنةً وفضلا لمن أحب ، كما قال وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ، أى بالهداية صدقاً لأوليائه ماوعدهم من ثوابه، وبالإضلال عدلاً على أعدائه ما أعدّ لهم من عقابهم. ثم قال تعالى لا يُسئل عما يفعل وهم يُسئلون، فهذه جنود

منقادة لأمره وهو مَلِكٌ جبار عزيز قهّار، تعالى عن مباشرة الأشياء، إذ كانت تنقاد لمشيئته وتُطَوِّع لقدرته، فتُنْفِذُ قدرتُه إرادته، وتُظهر حكمتُه أفعاله. إذا أراد شيأ قال له كن بخفيّ قُدرته فكان بظاهر حكمته. والرب سبحانه قادر على كل شئ ، بيده ملكوت كل شئ، حكيم فى كل شئ. والعبد ضعيف عاجز جاهل لا يقدر على شئ. قد ابتلى بالأسباب ووقع عليه الحجاب، وجعل مكانا للأحكام بالعقاب والثواب، فالأسباب أواسط البلاء، والعبد موضع الابتلاء ، والأوّل سبحانه وتعالى هو المُبلى المريد المبْدئ المعيد، وينشئكم فيما لا تعلمون، وليبلى المؤمنين منه بلاءً حسنا، وليس يشهد العبد إلاّ ما أشهَد، فبكذلك تفاوت العباد فى المشاهدة، ولا يستبين له إلاّ ما أبين له وأريد به، فعن ذلك اختلفوا فى الأدلة. فإذا أراد الله عز وجل إظهار شئ من خزائن الغيب حرّك النفس بلطيف القُدرة، فتحركت بإذنه، فقدح من جوهرها بحر كتها ظُلمة تُكتب فى القلب همّة سوء، فينظر العدوّ إلى القلب، وهو مراصد ينتظر. والقلوب له مبسوطة والنفوس لديه منشورة، يرى مافيها ما كان من عمله المبْتَلَى به، المُصرَّف فيه، فإذا رأى همّة قد قَدَحت فى النفس فاثرّت ظُلمة فى القلب ظهر مكانه فقوى بذلك سلطانه.

والهمّة تَرِد على أحد ثلاث معان لا تُحصى فروعها ، لأن همّة كل عبد على قدر بُغيته، أحدها هَوَى وهو عاجل حظ النفس أو أمنيته، وهذا عن الجهل الغريزى، أو دعوى حركة أو سكون، وهو آفة العقل ومحبة القلب، فأى هذه الثلاث قدح فى القلب فهو وسوسة نفس، وحضور عدو منسوب إليه، محكوم عليه بالذمّ، ليست تصدر إلاّ بأحد ثلاثة أصول، بجهل أو غفلة أو طلب فضول دنيا، وهن ممالا يعنى ومضافات إلى الدنيا وأعمالها، والأفضل مجاهدة النفس والعدوّ عن إمضائها، وحبس الجوارح عن السعى فيها إن كُنّ من فضول الدنيا المُباحات، فإنْ كن هذه الثلاث وَرَدْنَ بمحرّمات فَفَرْضٌ عليه كفّ الجوارح عن السعى فيها، فإنْ أمرحَ قلبه فى ذكرها أو نشر خطواته فى طلبها كن حجابا بين قلبه وبين اليقين ، وإن كن وردن بمباحات ففضلٌ له بنفيها عن قلبه كيلا يكون قلبه موطنا للغفلات، وأصلهن الابتلاء من الله تعالى بالتقليب والامتحان منه فى التصريف ، ولذلك خلَقَ النفس والروح والموت والحياة، وجعل ما على الأرض زينة لها ليُظهر أحسن العمل بالزهد فيها وينظر كيف تعملون. فإذا أراد الله تعالى سلامة هذا العبد بعد أن أشرف على الهلاك والبُعد، بتسليط العدوّ عليه وتسويل النفس له، نظر القلب عند الابتلاء، فهدى النفس بنور إيمانه إلى الله تعالى، فأسرّ الالتجاء إليه وأخفى التوكل عليه ،

عائذاً لائذاً به، واضطر مخلصاً له، فهناك توكل عليه فكان حسبه، وعندها فوّض إليه أمره فوقاه مكر عدوّه، وحينئذ اضطر إليه واتقاه فجعل له مخرجا ونجّاة ، فينظر الله تعالى إلى القلب نظرة تخمد النفس وتمحق الهمة وتُخنِس العدوّ لسقوط مكانه، وتَذْهب لخنوسه شدة سلطانه، فيصفو القلب من التأثير بنور السراج المنير، ويملس من التحرير بقوّة القهّار العزيز، فيخاف العبد مقام الرب لصفاء القلب عن نظر الرب تعالى، فيفزع من الخطيئة ويهرب أو يستغفر منها ويتوب، ويظهر عليه شعار تقواه. وإن أراد الله تعالى بعبدٍ هَلَكةً وكان قد حكم بوقوع الشر، نظر القلب بعد الهمة بهوى النفس إلى العقل فرجع العقل الى النفس فسوّلت وطوّعت، فسكن العقل واطمأن إلى تسويل النفس وطَوْعِها، فانشرح الصدر بالهوى لسكون العقل ، وانتشر الهوى فى القلب لشرح الصدر وتوسعته، فَقَوِى سلطان العدوّ لاتساع مكانه، فاقبل بتزيينه وغروره وأمانيه ووعده، يوحى بذلك زُخرفاً من القول وغروراً، فيَضْعُف سلطانُ الإيمان لقوّة سلطان العدوّ وخفاء نور اليقين، فغلب الهوى لقوّة الشهوة، فأحرقت الشهوة العلم والبيان، فارتفع الحياء واستتر الإيمان بالشهوة، فظهرت المعصية لغلبة الهوى وارتفاع الحياء. وهذان المعنيان من ظهور الخير والشر والطاعة والمعصية بهذه الأسباب يوجدان فى طرفة عين، فتصير أجزاء العبد جزأ واحدا، ومفصّلاته تعود بالمراد منه فصلا واحدا، كالبرق فى السرعة بتغليب القدرة على المشيئة، إذا قال جل وعلا له كن فيكون. وإن أراد الله تعالى إظهار خير وإلهام تَقْوَى من خزائن الملكوت حرّك الروح بخفيّ اللُطف فتحركت بأمره جلّت قدرته، فقدح من جوهرها نور سطع فى القلب همّةً عالية، وهمّةُ الخير ترى بأحد ثلاثة معان لا تحصى فروعها، لأن كل عبد همّته فى الخير مبلغ علمه ومنتهى مقامه، فأحد الأصول مسارعة الى أمر يُفرض، أو ندب لفضل يكون عن عمل حال العبد، أو علمٍ يكون فطنة له أظهر عليه من مكاشفة غيب من ملَك أو ملكوت، والمعنى الثالث بتحمل مباح من تصرف فيما يعنى مما يعود صلاحه عليه، واستراحة النفس بما أبيح له يكون نفعه لغيره، أو ترويحات من الأفكار لقلبه الغائص فى البحار يكون حملا لكَربه وتخفيفا لثُقله، فهذه مرافق للعبد باختيارٍ من المعبود وحكمةٍ من الحكيم ، وفى كلها رضاه سبحانه وتعالى ، فإمضاؤها أفضل للعبد وبعضها أفضل من بعض. وهذه الأصول الستة من الخير والشر هى الفرق بين لُمةُ الملك وبين لمة العدوّ، وبين إلهام التقوى وإلهام الفجور التى هى النية والوسوسة، وهما الاختيار أو الاختبار. وقد تكون هذه المعانى مكاشفات مزيد للعبد ينظر الله منها، ويجد الله تعالى بما أوجده منه عندها، ويكون تعريفا من الله يتعرف إليه بها، ويفتح له باب الأنس

والشوق منها، ثم تتفاوت العباد فى مشاهدتها على حسب علوّها فى اليقين، وعلى قدر قوتهم ومكانهم من التمكين، إلاّ أن أصول معانى الخير وأواسطها إلهام المَلك، والإلقاء فى الروح وقوادح الأنوار فى كتب الإيمان وفروعها الآخره، والعلم مما أُمر به أو نُدب إليه، والمباح، وأصول معانى الشر، أضدادها، أواسطها النفس والعدوّ وأسبابها الشهوة والهوى، يظهرن عن الجهل، ويوقعن الحجاب ويُصدرن إلى عقاب. فإذا أراد اللّه تعالى إظهار خير من خزانة الروح حّركها فسطعت نوراً فى القلب فأثرت، فينظر المَلك إلى القلب فيرى ما أحدث اللّه تعالى فيه فيظهر مكانه فيتمكن على مثال فعل العدوّ فى خزانة الشر وهى النفس، والملك مجبول على الهداية مطبوع على حب الطاعة، كما أن العدو مجبول على الغواية مطبوع على حب المعصية، فيلقى الملك الإلهام وهو خطورُه على القلب بقَدْح خواطره، يأمر بتقييد ذلك ويُحسّنه له ويَحثُه عليه، وهذا هو إلهام التقوى والرُشد، وينظر الملك إلى اليقين كما نظر العدو إلى النفس، فيشهد اليقين للملك بذلك، فيطمئن العقل ويسكن إلى شهادة اليقين، ويصير العقل الآن بإذن اللّه تعالى مع الملك بتأييد اللّه تعالى، كما كان مع النفس أوّل مرة مطمئناً إليها، فينشرح الصدر لطمأنينة العقل، فتظهر أدلة العلم لانشراح الصدر، فيقوى سلطان اليقين لصفاء الإيمان، وتندرج ظلمة الهوى فى نور اليقين، وتنطفى شعلة الشهوة لظهور نور الإيمان، ويُزيّن الإيمان بزينة الحياء، فتضعف صفات النفس لسقوط الشهوة، ويقوىَ القلب لضعف النفس، ويزيد الإيمان بقوة اليقين وظهور أدلة العلم، فتغلب الهداية لمزيد الإيمان ولِبْسة الحياء، فتظهر الطاعة لغلبة الحق، واللّه غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ذكر نوع آخر من البيان

وقد تختلف اللمّتان من المَلك والعدوّ ويتفاوت الإلهام والوسوسة فى المعانى من الخير والشر، فربما تقدّمت لُمة العدوّ بالأمر بالشر، وتقدح بعدها لُمة المَلك، نُصرةً للعبد وتثبيتا على الخير وعنايةً من الرب تعالى، فينهى عن ذلك، فعلى العبد أن يَعصى الخاطر الأوّل ويطيع الخاطر الثانى وقد يتقدم إلهام المَلك بالأمر بالخير، ثم يقْدَح بعده خاطر العدوّ بالنهى عنه والتثبيط والإملاء فيه بالتأخير، محنةً من اللّه تعالى للعبد، لينظر كيف يعمل، وحسداً من العدوّ، فعليه أن يطيع الخاطر الأول ويعصى الخاطر الثانى. ثم تدِق الخواطر من إلهام المَلك بالخير ومن وسوسة العدوّ بالشر، وقد يتفاوت ذلك من ضعف خاطر الخير لقوة الرغبة فى الدنيا، ومن قوّة

خاطر الشر لقوّة الشهوة والهوى، وفى المزيد والنقص منهما، والتقديم والتأخير بهما، لتفاوت الأحكام والإرادة من الحاكم، ومن قبل تقليب القدرة وغرائب الأحكام بالمشيئة، لأن له فى خزانة الخير خزانة الشر إذا شاء، وله فى خزانة الشر خزائن الخير إذا أحب لمن يحبه، لئلا يسكن إلى سواه. ولا يدل العبد بما منه أبداه، فإذا شهد العارف ذلك لم يقطع بخير ولم يدل به أبداً، لأنه لا يأمن مكر الله تعالى بتقليب خزائن الشر من خزائن الخير إذا عليه أبداه، ولم ييأس من شر عليه أبداه لأنه يرجو تقليب خزائن الخير من خزائن الشر، فيكون بين الخوف والرجاء، ولا يدرك ذلك إلاّ بدقائق العلوم ولطائف الفهوم وغوامض الفِطَن وصفاء الأنوار من تعليم الرحيم الجبار، فما كان للعبد يجد بعد خَطْرَة الشر خطرة خير منها تنهاه عنها، فهو منظور إليه متدارَكٌ به، وهذا هو الواعظ القائم فى القلب، والزاجر المؤيد للعقل. وقد تترادف خواطر الشر من النفس والهوى فلا يتعاقبها خاطر خير المَلَك وهذا علامة البُعد ونهاية قسوة القلب. وقد تتابع خواطر الخير والبرّ من الروح والمَلَك، ويُعافى العبد من خاطر الهوى والنفس، وهذا علامة القُرب وهو حال المقرّبين. وقد ترد خواطر العدوّ ووساوسه بالخير والبر ابتلاءً من الله تعالى لعبده، وحيلة من العدوّ ومكراً من النفس، يريد العدوّ بذلك الشر أن يخرجه آخراً إلى إثم أو خير، ليقطعه بذلك عن واجب، أو يشغله به عن الأفضل فى الحال، فيكون ظاهره براً وباطنه إثما، ويكون أوّله خيراً وآخره إثما، وبغية العدوّ من ذلك باطنه وآخره، وشهوة النفس فى ذلك هواها ومُناها قد لبسا ظاهره بالخير تزييناً، وَمَوّها أوّله بالبر تحسيناً، وهذا من أدق ما يُبتلى به العاملون، ولا يعرف بواطنه وسرائره إلاّ العالمون. فأمّا خاطر المَلَك فلا يرد إلاّ بخير صريح وبرّ محض على كل حال إذا ورد، لأن الخداع والحيلة ليس من وصف الملائكة، ولكن قد تنقطع خواطر المَلَك من القلب إذا اشتدت قسوته ودامت معصيته من المتعبدين، فيُخَلّى بين القلب وبين نوازع العدوّ اللعين، ويتخلى العدوّ بهوى النفس فيستحوذ ويقترن بالعبد، نعوذ بالله من إبعاده وعدم خيره وإرشاده. ولا يزال العبد مع إلهام المَلَك فى مقام الإيمان، فإذا رُفع إلى مقام اليقين تولاّه الله تعالى بواسطة أنوار الروح، فكان الروح مكان إلقاء الحق حتى يَرُدّ عليه من الله تعالى بواسطة أنوار الروح من السرائر مالا يطلّع عليه الملك، ولا يكون ذلك حتى تفنى خواطر النفس بالهوى، ولا تبقى منها باقية، وتطوى النفس فتندرج فى الروح فلا يظهر منها داعية، ثم يتولاه الله تعالى بنور اليقين

فيسطع له نور اليقين من خزانة الغيب المحجوب بمكاشفات الجبروت، فيشهد العبد شهادة الحق بالحق معاينةً الغيب، بفقد كونه ووجد كينونته، ومالا يصلح بعد ذلك كشفه إلاّ لأهله، أو لمن سأل عنه، وهذا يكون فى مقام التوحيد، وهذا أنصبة المقربين.

ذكر بيان آخر من تفصيل المعانى

وكل عمل وإن قلّ لابد فيه من ثلاثة معان قد استأثر الله تعالى بتولّيها، أوّلها التوفيق وهو الاتفاق أن يجمع بينك وبين الشىء، ثم القوة وهو اسم لثبات الحركة التى هى أوّل العقل، ثم الصبر وهو تمام الفعل الذى به يتم، فقد ردّ الله عز وجل هذه الأصول التى يظهر عنها كل عمل إليه، فقال سبحانه وما توفيقى إلاّ بالله، وقال ما شاء الله لا قوّة إلاّ بالله، وقال عز وجل واصبر وما صبرك إلاّ بالله. وقد أجمل الله عز وجل ذكر تقليب الكون بمشيئته فى قوله تعالى يُقلّب الله الليل والنهار، والمعنى بما فيهما لأنهما ظرفان للأشياء فعبّر عنهما بهما، كقوله تعالى بل مَكْرُ الليل والنهار، والمعنى مكركم فى الليل والنهار، فعبر بهما عن مكرهم، لأنهما مكان لمكرهم، وكذلك قوله تعالى وله ما سكن فى الليل والنهار، فيها وجهان أحدهما أى ما أقام من السكن، والثانى ما سكن من السكون وإنما ذكر السكون دون الحركة لأنه هو الأصل حتى تحرّك وهو الأقرب إلى العجز والعدم، والتحريك حادث جار بأحداث الله تعالى وإجرائه. ويجوز أيضا ذكر السكون ليُستدلّ به على الحركة لأنه ضدها كما قال الله تعالى سرابيل تقيكم الحر، وهى أيضا تقى البرد، فذكر أحد الوصفين ليستدلّ به على الآخر. وقال سبحانه ونقلبّ أفئدتهم وأبصارهم. وكان قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم يا مقلّب القلوب لِما شهد من عظيم القدرة ولطيف الصنع فى التقليب، ولما رأى من سرعة نفاذ القدرة بالمراد فى المقلّبات مما لم يشهد سواه، فجعله قسما له تعظيما لقُدرة المحلوف به وخوفا من سابق العلم بالتقليب، فكان يقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم يا مقلّب القلوب ثبّت قلبى على دينك، وقالوا له تخاف يا رسول الله، قال وما يؤمننى والقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلّبها كيف يشاء. وفى لفظ حديث آخر إنْ شاء أقامه وإنْ شاء أن يزيغه أزاغه. وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل القلب مثل العصفور فى تقلّبه يتقلّب فى كل ساعة. وفى خبر آخر مثل القلب فى تقلبه كالقدر إذا استجمعت غليا. والخبر المشتهر مثل القلب كمثل ريشة بأرضٍ فلاة تقلّبها الرياح ظهَراً لبطن. فالقلب مكان للتقليب بما فيه من خزائن الغيب، كالليل والنهار مكان للأحكام بالتصريف من اختلاف الأزمان فى الأوقات.

والإيمان بتقلّيب القلوب وبأن المقلّب يحول بين القلب وبين صاحبه واجب. وقد قَرنَ الله عز

وجل الإيمان بالبعث فى قوله تعالى واعلموا أن الله يحُول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون. وفسّره ابن عباس فقال يحول بين المؤمن وبين الكفر، ويحول بين الكافر وبين الإيمان. وقيل يحول بين العبد وبين الاستجابة لله تعالى والرسول. وقيل يحول بين المؤمن وبين سوء الخاتمة، وبين الكافر وحُسن الخاتمة. وقيل يحول بين المؤمن وبين أن يلقيه فى كبيرة يَهلك فيها، وبين المنافق وبين أن يوفقه لطاعة فينجو بها. ويحول بين الموّحد وبين الخاتمة بالتوحيد. وهذه مخاوف للمؤمنين بتحقيق الوعيد. وكذلك الكون بأسره عند الموّحدين فى القدرة بالتقليب كمثل ريشة فى ريح عاصف تقلّبه القدرة على مشيئة القادر.

وليس فى القدرة ترتيب ولا مَسافة ولا بُعد ولا يحتاج إلى زمان ولا مكان، فماظهر من الملك وثبت للعيون بمكان وزمان فلأجل الحكمة والصنعة والإتقان، وما خفى من الملكوت وتقلّب ببصائر القلوب فبلطف القدرة وقهر السلطان. ونصيب كل عبد من مشاهدة القدرة بقدر نصيبه من التوحيد، ونصيبه من التوحيد حسب قِسْمه من اليقين. وقسمه من اليقين على قُربه من القريب، وقربه على حسب قُرب الله تعالى من قلبه، وقرب الله تعالى منه بقدر علمه بالله تعالى، واتساعه فى العلم بالله عز وجل على نحو مكانه من مزيد الإيمان، ومزيد إيمانه على قدر إحسان الله تعالى إليه، وإحسانه إليه على قدر عنايته به وإيثاره له، وعِلم الله من وراء ذلك، وذاك سر القدرة المحجوب المختزن.

ونصيب كل عبد من الجهل على قدر نصيبه من الغفلة، ونصيبه من الغفلة على حسب حب الدنيا. وحبه للدنيا على قدر قوّة الهوى، وقوّة الهوى على قدر غلبة سلطان النفس ونشر صفاتها عليه، وقوّة صفات النفس على قدر ضعف اليقين، وضعف يقينه على كثافة الحجاب والبُعد بينه وبين الله عز وجل، والحجاب والبُعد ميراثه الكِبْر وقسوة القلب، والقسوة توّرث الانهماك فى المعاصى، وإدمان المعاصى عن الإعراض والمَقْت. والإعراض والمقت من قلة عناية المولى بعبده وسوء نظره له، ومن وراء ذلك سر القَدَر الذى به عن الخلق قد استأثر، فهذه الأوصاف المذمومة العبد مبتلى بها على تضاد تلك الصفات المحمودة التى هى من المنُعم بها، ولكل وجهة هو موليها.

ومكان الهوى من القلب على قدر تزيين العدوّ له وتسليطه عليه، فمن يُرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يُرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجا. إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإنْ يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده. وإنْ يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلاّ هو. وإنْ يردك بخير فلا رادّ لفضله، فإذا كان الهادى هو المضلّ فمن يهدى. وقد قال الله

تعالى فإن الله لا يهدى من يضل، أى فإن اللّه من شأنه أن أحداً لا يهدى من أضله. ومن كان أضله اللّه فى سابق علمه فكيف يهديه الآن. كذلك قال على الحرف الآخر فإن اللّه لا يهدى من يضل، فإذا كان المعطى هو المانع فمن يعطى. ولو كان الخير كله فى قلب عبد ما قدر أن يُوَصّل إلى قلبه من قلبه ذرة، ولا استطاع أن ينفع نفسه بنفسه خَردَلة، لأن قلبه وإن كان جارحته فهو خزانته وله فيه مالا يعلم هو، فهو لا يطلّع على ما فيه كما قال معجبا لمن جهله وأضلّه – اطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا، فكيف به أن يملك ما فيه فيصرّفه بما يحب. وقد قال صلى اللّه عليه وسلم سبحان مصرّف القلوب. وقد خاطب اللّه تعالى سيد البشر وأمره أن يخبر فقال قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرّا إلا ماشاء الله. ثم قال بعد ذلك قل إنى لا أملك لكم ضرّا ولا رشدا. قل إنى لن يجيرنى من اللّه أحد ولن أجد من دونه ملتحدا.

وإذا كان المالك عزيزا جبارا وكان كل شىء بيده لم يوصل إلى ما عنده بقوة ولا حيلة، فليس الطريق إليه إلاّ الصدق والإخلاصَ والذل والافتقار. وقد حُجب العقل المكيد عن النظر إلى المبدى المعيد، بما أظهر له من صورته وحركته، فستره عن الأول المصوّر وعن القادر المحرك، فادّعى عن نظره إلى حركته وسكونه التى هى حجبة له عن المحرك، لغيب ادعاء الحركة والسكون بنفسه، لوقوف نظره على نفسه، إذ كان مشهوداً وعمى عن النظر إلى الشاهد المُحرّك المُسكّن لبُعد مقامه، لأنه غيب من وراء الحركة، والغيب لا يُشهَد إلاّ بغيب وهو اليقين، كما لا تُدرك الشهادة إلابشهادة وهى العين، فمن عَمِىَ بصره لم ير من الملك شيأ، كذلك من حُجِب قلبه لم ير من الملك شيأ، فلعدم اليقين عَمِى عن المشاهدة، ولإيقاع الحُجة والحجاب أدرك بالمعقول الشهادة. ولو كان من أولى البصائر لاعتبر الحركة الغيبية بالتحرك المشاهَد، فكما أن الحركة غيب فى الجسم ظهر عنها المتحرك فاظهر سبحانه المتحرك وأخفى الحركة فيه، وأظهر الصنعة وأخفى الصُنع فيها لتفصيل حكمته. كذلك الصانع نو الصنعة الأول، والحاكم الأعلى نو الحكمة الأغلب، غيّب عن الحركة التى أخفاها هو من ورائها بلطائف القُدرة، فشهد المعقول ما أشهدهما أظهر له، ووجه به لأنه معقول عليه محدود له، وعَمِى عما غُيّب عنه لفقد اليقين منه، فعندهما ادّعى الحركة والسكون للشاهد فحجبه ذلك عن الشهيد، وشهد الموّحد بشهادة التوحيد فوَجد لمّا كَشَف له الملكوت بنور اليقين فانفرد. وقد قال بعض العارفين من نَظَر فى توحيده إلى عقله لم يُنجه توحيده من النار، ومن كان توحيده فى الدنيا مُعلقًا بمعقوله لم يحمل توحيده معه إلى اليقين. أحَسِبَ أن هذا إيمان الذى يقال أخرجوا من النار من كان فى قلبه وزن مثقال من إيمان. فمازاد على هذا المقدار فهو متصل باليقين وهو

مؤيد بالروح، يمده روح التأييد فلا ينطفى فهو المزخرَح عن النار. وقد قال بعض علمائنا من ظنّ أنه يصل إلى اللّه تعالى قُطع به، ومن استعان على عبادة اللّه تعالى بنفسه وُكِلَ إلى نفسه.

ثم إن الخلق محجوبون بعد هذا الحجاب بثلاثة حجب بعضها أكثف من بعض، أحدها أواسط وأسباب معترضة، وشهوات جاذبة، وعادات راجعة صادرة، فالأسباب توقفهم عليها، والشهوات تجذبهم إليها، والعادات تردهم فيها، فأى هذه الحجب ظهر فى القلب، وبعضها أشد عليه من بعض، فهو مكان للعدوّ أوسع من مكان، فتمكّن سلطانه على قدر سعة مكانه، فقويت النفس بتزيين العدوّ وسوّلت بتأميلها، فملكت العبد ملكا أشد من ملك، فإذا ملكت النفس العبد كان مملوكها وأسيرها وكانت بالهوى أميرة، فاستهواه الشيطان حينئذ بالغواية والإضلال، واستحوذ عليه بمعانى المشاركة فى الأولاد والأموال، فشغله بذلك عن اللّه سبحانه وتعالى، وأنساه ذكر اللّه عز وجل. وهذا هو الاقتران الذى نمّه اللّه تعالى فى قوله ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا. وهو فوق النزغ والهمز والخاطر بعد الهمّة، وهو خطور العدوّ على القلب بالوسوسة، يزين الهمة، ويملى للعبد ويرجّيه، ويفسح له فى أمله ويمنّيه التوبة حتى تهون عليه المعصية، ويعده بعدها بالمغفرة حتى يُجرئه على الخطيئة، وهذا هو الوعد بالغرور، وبعده الهلاك والثبور. كما قال يعدهم، أى التوبة، ويمنّيهم المغفرة، وما يعدهم الشيطان إلاّ غرورا. هذا كله تصديق ظن العدو بالعبد، واتبّاع العبد له بالهوى عن مقام البُعد، وكشْف لعلم اللّه بإظهار الحُكم وإنفاذ المشيئة، وهو الابتلاء بالأسباب، فصار العدوّ سببا لقوله تعالى ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه فاتّبعوه إلاّ فريقا من المؤمنين. ثم أحكَمَ ذلك بسابق علمه فقال وما كان له عليهم من سلطان، يعنى بحوله وقوته، وبقهره ومشيئته، إلاّ لنعلم بالآخرة ممن هو منها فى شك، أى لنرى، وقيل لنعلم العلم الذى يجازى عليه بالثواب والعقاب، وقيل لنختبر ونكشف، وقيل لنعلّم المؤمنين ذلك فيستبين لهم، ويعلم من عمل تلك الأعمال التى ظهرت منه فتوُقع عليه بذلك الحُجة ويتبين له كذبه. كما قال فليعلمنّ اللّه الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين، فعلى هذه المعانى مجاز كل ما فى كتاب اللّه عز وجل من قوله لنعلم وحتى نعلم، إذ كان علمه تعالى قد سبق المعلومات، وإذ كانت الأشياء عن علمه بعمله جاريات، فجعل تسليط العدوّ بسلطانه كشفاً وإظهاراً لما أخفاه من سابق علمه، كما جعل أفعال العباد الظاهرة كشفاً وإظهاراً لإرادته الباطنة. وروينا عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم سبق العلم، وجفّ القلم، وقضى القضاء، وتمّ القدر بالسعادة من اللّه تعالى لأهل طاعته، وبالشقاء من اللّه تعالى لأهل معصيته.

ذكر تقسيم الخواطر وتفصيل إسمائها

فأما تسمية جملة الخواطر فما وقع فى القلب من عمل الخير فهو إلهام، وما وقع من عمل الشر فهو وسواس، وما وقع فى القلب من المخاوف فهو الحساس، وما كان من تقدير الخير وتأميله فهو نيّة، وما كان من تدبير الأمور المُباحات وترجّيها والطمع فيها فهو أمنية وأمل، وما كان من تذكرة الآخرة والوعد والوعيد فهو تذكُّر وتفكير، وما كان من معاينة الغيب بعين اليقين فهو مشاهدة، وما كان من تحدث النفس بمعاشها وتصريف أحوالها فهو هَمّ، وما كان من خواطر العادات ونوازع الشهوات فهو لَمَم، ويسمى جميع ذلك خواطر، لأنه خطور همة نفس، أو خطور عدوّ بحسد، أو خطرة مَلَك بهمس.

ثم إنّ ترتيب الخواطر المنشأة من خزائن الغيب القادحة فى القلب على ستة معان، وهذه حدود الشىء المُظهر، ثلاثة منها معفوة، وثلاثة منها مُطالب بها. فأول ذلك الهمة وهو ما يبدو من وسوسة النفس بالشىء العبد يجده العبد بالحس، كالبرقة فإنْ صرفها بالنكْر امْتَحت، وإن تركها بالغفلة كانت خَطْرة، وهو خطور العدوّ بالتزيين، وإنْ نفى الخاطر ذهب، وإنْ ولّى عنه قوى فصار وسوسة، وهذا محادثة النفس للعدو وإصغاؤها إليه، وإن نفى العبد هذه الوسوسة بذكر الله خنسَ العدوّ وصفت النفس. وهذه الثلاث معفوّة برحمة الله تعالى، غير مؤاخذ بها العبد، وإنْ أمرج العبد النفس فى محادثة العدوّ وطاولت النفس العوْد بالإصغاء والمحادثة قويت الوسوسة فصارت نيّة، فإنْ أبْدل العبد هذه النيّة بنيّة خير فاستغفر منها وتاب، وإلاّ قويت فصارت عَقْداً فإنْ حلّ هذا العقد بالتوبة وهو الإصرار، والأقوى فصار عزما وهو القصد.

وهذه الثلاثة من أعمال القلب، مأخوذ بهاالعبد ومسؤل عنها ، فإنْ تداركه الله تعالى بعد العزم وإلاّ تمكّن العزم فصار طَلَبا وسعيا، وأظهر العمل على الجوارح من خزائن الغيب والملكوت، فصار من أعمال الجسم فى خزانة الملك والشهادة. فهذه الأعمال توجد من أعمال البرّ والإثم، فما كان منها من البّر همّة ونيّة وعزما كان محسوبا للعبد فى باب النيات، مكتوباً له فى ديوان الإرادة، له به حسنات. وما كان منها من الشرّ نيةً وعقداً وعزماً، فعلى العبد فيه مؤاخذة من باب أعمال القلوب ونيّات السوء وعقود المعاصى، وليس شئ مجانس للعدوّ مُؤاخ له إلاّ النفس، جَمَع الله تعالى بينهما فى الوسوسة بقوله الوسواس الخناس، وقوله ونعلم ما توسوس به نفسه. وكل شئ خلقه الله تعالى فله مِثْل وضد، فمثل النفس الشيطان وضدهما الروح. ثم إنّ أعمال الجوارح من النوعين الطاعة والمعصية أعظم فى الأجر والوزر معا، إلاّ ما

لا يتأتى أن يعمله بظاهر الجسم من شهادة التوحيد، أو وجود شك أو كفر، أو اعتقاد بدعة.

باب آخر من البيان والتفصيل

فأمّا ما كان من لائح يلوح فى القلب من معصيّة ثم يتقلب فلايلبث فهذا نزغ من قبيل العدوّ، وما كان فى القلب من هوى ثابت أو حال مزعج دائم لابث فهو من قبل النفس الأمّارة بطبعها أو مطالبة منها بسوء عادتها، وما ورد على العبد من همّة بخطيئة وَوَجد العبد فيها كراهتها فالورود من قبل العدوّ والكراهة من قبل الإيمان، وما وجده العبدَ وَجْداً بهوى أو معصية ثم ورد عليه المنع من ذلك فالوجد من النفس والوارد بالمنع من المَلَك، وما وجده العبد من فكر فى عاقبة الدنيا أو تدبير الحال ونظر إلى معهود فهذا من قبل العقل، وما وجد من خوف أو حياء أو وَرَع أو زهد، أو من شأن الآخرة، فهذا عن الإيمان، وما شهده القلب من تعظيم أو هيبة أو إجلال أوقُرب، فهذا من اليقين، وهو من مزيد الإيمان. وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه، كما قال صاحب الأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعوذبك منك، وإنما هذا تفصيل الحدود وإظهار المكان وإحكام العلم ، كما قال تعالى وكل شئ فصّلناه تفصيلا، وقال قد فصّلنا الآيات لقوم يعلمون. وليس فى التوحيد ولا فى المشاهدة تفكُّر، ولا فى الإشارة عيان، ولا فى القُدرة ترتيب، ولكن لابد من علم التفصيل وهو التفرقة بلسان الشرع عن عين الجمع، لإظهار الطُرق واستنارة السبل وتطريق السالكين وترتيب العالمين، ليهلك من هلك عن بيّنة، ويحيا من حيّ عن بينة، والله غالبٌ على أمره.

وقد فصّل بعض العلماء أعمال العباد وفرّق بين الأمر والإرادة، فقال إن أعمال العباد لا تخلو من ثلاثة أنواع، فرْض وفضْل ومعصية، قال فنقول إن الفرض بأمر الله تعالى ومحبة الله ومشيئة الله، تجتمع هذه المعانى الثلاثة فى الفرائض. قال ونقول إن النَفْل لا بأمر الله، لأنه لم يوجبه ولم يعاقب على تركه، ولكن بمحبة الله ومشيئته جلّ وعلا، أى لأنه شرَعه وندَب إليه، فقال ونقول إن المعصية لا بأمر الله لأنه لم يُشرّعها على السنّة المرسلين، ولا بمحبة الله لأنه قد كرهها إذ لم يأمر بها ولم يندب إليها، ولكن بمشيئة الله جلّت عظمته أن لا يخرج شئ من إرادته كما لم يخرج شئ من علمه ، والإرادة والمشيئة اسمان بمعنى واحد، فقد دخل كل شئ فيها، كما دخل كل شئ فى العلم، فالله سبحانه عالم بما أراده وقد سبق به علمه، كذلك هو مريد لما علِمَه. أظهرت إرادته سابق علمه وكشَفَ علم الغيب بظهور إرادته الشهادة، فهو عالم الغيب والشهادة، فالغيب علمه والشهادة معلومه، فكيف يخالف المعلوم العلم وهو إجراؤه. والإرادة نفّذت العلم فى معلومات الخلق وهذا فرض التوحيد، فخرجت النوافل عن الأمر،

وخرجت المعاصى عن المحبة فى تفصيل الأحكام ، وتبيّن الحلال والحرام، ولم تخرج معصية عن مشيئة، وقد قال الله جل ثناؤه وكل صغير وكبير مُستَطر. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل شئ بقضاء وقَدر، حتى العجز والكيس، فذكر عرضَيْن لطيفين هما سببا المنع والعطاء.

وقد فرّق عالمِنا بين الأمر والإرادة فرقاً لطيفا، فحدثنى بعض أصحابنا أنه سئل عن قول الله عز وجل لمّا أمر إبليس بالسجود لآدم، أراد منه ذلك أم لا، فقال أراده ولمْ يرده منه، يعنى أراده شرعاً وإظهاراً، وعليه إيجابا، ولم يرده منه وقوعاً ولا كوْنا، إذلا يكون إلا ما أراد الله تعالى، إذلو أراد كونه لكان، ولو أراده فعلا لوقع، لقوله تعالى إنما أمره إذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون، فلمّا لم يكن علمتُ أنه لم يُرده فقد كان الأمران معاً إرادته بالتكليف والتعبد، وإرادته بأن لا يسجد، فلم يقدر أن يمتنع من أن لا يسجد، كما لم يقدر من أن يمتنع من أن يؤمن، فكذلك القول فى نهيه لآدم صلى الله عليه وسلم عن أكل الشجرة أنه أراد الأكل منه ولم يرده له، أى أراده وقوعاً وكوْناً لأنه قد وُجد وكان، كقوله إذا أردناه أن نقول له كن فيكون، فلما كان علمتُ أنه أراده ولم يُرده شرعا ولا أمْراً، لأنه لم يأمره به، ولا شرّعه له، فقد كان الأمران جميعا إرادته، أن يكون العبد مكلفا مأموراً، وإرادته الأكل منه، لأنه قد كان. وكذلك القول فى كل ما أمر به وأراده، أنه أراد الأمر والنهى لهم ليكونوا مكلفين متعبدين، ولم يرده ممن لم يكن منه الائتمار والانتهاء، لأنه قال تعالى إنما أمرنا لشئ إذا أردناه أن نقول له كن فيكون، فأخبرأنه إذا أراد شيأ كوّنه، كما أنه إذا كوّن شيأ فقد أراده بدلالة كونه، فلّما لم يكن الأمر من العاصين علمنا أنه لم يُرده، إذ لو أراده كان. ولّما كان النهى من المأمورين علمنا أنه أراد كُونه إذ لو لم يرده لم يكن، فصاركُون الشئ دليلا على إرادته. وقد وقعت الإرادة بالأمر والنهى، فكان الكل مأمورين منتهين، ولم يقع الفعل من الكل، لأنه لم يرد وقوعه، إذ لو أراده كان، وهذا أصل الابتلاء وإرادة ظهور البلاء، يأمر الله تعالى بالشئ ويريد كون ضده، وقد أراد الأمر به فحسب، وينهى عن الشئ ويريد كونه، وقد أراد النهى عنه فقط. وقد كان عالمنا أبو الحسن رحمة الله عليه يتكلم فى علم الأمر والخبر، وفى الابتلاء والقهر، بمعان لا يُهتدَى إليها اليوم، ولا يسأل عنها أحد، أى يُظهر الأمر بالترك، ويُظهر النهى بالفعل، ويظهر الأحكام لوقوع البلاء، ويُقهر الجوارح بالجبر على إرادته للابتلاء. وقد فرّق الحسن البصرى رحمه الله قبله وهو إمامنا فى هذا العلم، بين التعذيب على جريان العلم ومخالفة الأمر، لّمابلغه أن عمرو ابن عبيد وهو إمام المعتزلة، وإليه نُسبوا لّما اعتزل عن الحسن البصرى بعد أنْ صحبه ولم يُختم له بصحبته، بلّغَه أنه يقول إن الله لا يقضى بالشئ ثم يعذّب عليه، فقال له ويلك إن الله عز وجل لا يعذب على جريان حكمه، وإنما يعذب على مخالفة أمره، وتفسير ذلك أن ماحكمه

الله تعالى منفردا به لم يجعل فيه أمراً ولا نهياً لا يعذب عليه، لأنه لم يجعل للعبد مدخلا فيه بشهوة ولا فعل، وإن ما قضاه على العبد مما أدخله فيه بقصده وشهوته عذّبه عليه، وهذا من شؤم النفس وتكدير الخُلق، أنها إذا أُدخلت فى شئ انقلب عليها شرّه. والأمة مجتمعة على قول ما شاء الله كان، ومالم يشأ لم يكن. واجتمعت على قول لاحول ولا قوّة إلاّ بالله، فهذا عام فى كل شئ ليس فى بعض الأشياء دون بعض. والحول فى اللغة هو الحركة، والعرب تقول للشخص يبدومن بعيد ويُظَن أنه إنسان أو شجرة أو صخرة، انظروا إليه فإنْ كان يحول فهو إنسان، أى يتحرك. والقوّة هو الثبات بعد الحركة، وهو أول الصبر، حتى يظهر الفعل بقوّة الله تعالى. وقد روينا فى تفسير ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لاحول عن معصية الله إلاّ بعصمة الله، ولا قوّة على طاعة الله إلاّ بعون الله. وهذا التفصيل فى هذه المعانى من الأحكام هو ظاهر العلم، وفرْض القَدَر، وفحوى التنزيل والشرع، والجبر للملك الجبّار يُجبر خلقه على ما شاء، كما خلقهم لما شاء، ويُرِدْهم إلى ماشاء، كما ينشئهم فيما يشاء، فالحكم لله العلىّ الكبير، الواحد القهار، يقهر عباده كيف شاء، ويجرى عليهم ما يشاء، له الحُجة البالغة، والعزة القاهرة، والقدرة النافذة، والمشيئة السابقة، بوصف الربوبية، وبحكم الجبرية، وعليهم الاستسلام والانقياد والطاعة والاجتهاد، طوعا وكرها، بوصف العبودية، وبحق المُلْكة، إنْ كان الله يريد أنْ يغويكم هو ربكم، إنْ تعذبهم فإنهم عبادك، ولو شاء لهداكم أجمعين، لله الأمر من قبل ومن بعد.

الفصل الحادى والثلاثون

فيه كتاب العلم وتفصيله واوصاف العلماء. وذكر فضل علم المعرفة على سائر العلوم. وكشف طرق العلماء من السلف الصالح. وذكر بيان تفضيل علوم الصمت وطريق الورعين فى العلم. والفرق بين العلم الظاهر والباطن. وبين علماء الدنيا وعلماء الآخرة. وفضل اهل المعرفة على علماء الظاهر. وذكر علماء السوء الآكلين بعلومهم الدنيا. ووصف العلم وطريق التعليم. وذمّ ما أحدثه المتأخرون من القصص والكلام. وباب ذكر ما أحدث الناس من القول والفعل فيما بينهم مما لم يكن عليه السلف. وبيان فضل الايمان واليقين على سائر العلوم. والتحذير من الرأى

معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم، وفى الحديث الآخر أطلبوا العلم ولو بالصين فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم. قال عالمنا أبو محمد سهل رحمه الله: أراد بذلك علم حال، يعنى علم حال العبد من مقامه الذى أقيم فيه، بأن يعلم